

الباب السادس

امتداد الثورة خارج حدود الجبل

obeikandi.com

الفصل الأول

ثورة حماء - معارك الغوطة - معركة النبك الكبرى

ثورة حماء

ازداد نشاط الشباب وقادة الفكر في حماء لإشعال الثورة في بلدتهم ضد الفرنسيين بعد معركة المزرعة مباشرة. وبعد عدة اجتماعات لمنظمي الثورة مثل "عثمان الحوراني وفوزي القاوقجي وعبد الشيخ سعيد الحاج مصطفى الذيب والحاج محمد الحبال وعبد السلام العرجا"^(١). "قرر الجميع التنسيق مع الثورة في الجبل. وفي مطلع أيلول سنة ١٩٢٥ وصل إلى الجبل رسولا منظمي الثورة في حماء وهما منير الرئيس ومظهر السباعي، يحملان رسالة إلى قيادة الثورة - سلطان الأطرش بالذات يطلبون فيها"^(٢) :

١- تحديد الموعد الأنسب لتفجر ثورتهم في حماء.

٢- عدم عقد أي صلح دون الرجوع إليهم.

٣- تنفيذ عملية حربية كبيرة عند اقتراب الموعد.

٤- تعيين مكان للانسحاب إذا فشلت ثورتهم"^(٣)

وصل كتاب سلطان الأطرش كجواب للدكتور خالد الخطيب في حماء مع الموافقة على جميع الشروط وتحديد غرة تشرين الأول سنة ١٩٢٥ كموعداً لإعلان الثورة على عجل في حماء، ومع الاتصالات المكثفة والاجتماعات بين الأعيان الثائرين تقرر بدء الثورة في ٣٠ أيلول باجتماع بحي الحاضر لكن الاجتماع لم يتم بسبب الخلاف في تغيير أماكن التجمع وعاد الضابط فوزي القاوقجي لمكان إبعاده بين العشائر في البادية حتى لا يفتضح أمره بعد أن قطعت أسلاك الهاتف ليلاً في

(١) مذكرات حلقة ٤.

(٢) منير الرئيس ص ٢١٠.

(٣) الشهبندر ص ٤٩.

المدينة عدا تلفون سكة الحديد ، وتأجلت الثورة حتى ليلة ١٠/٤/١٩٢٥ لذلك شاعت أخبارها في المدينة فتحصن الفرنسيون في الشكنات ورحلوا عائلاتهم من المدينة. وفي الموعد الجديد وصل القاوقجي من الريف ليلاً إلى دار سعيد الترماني و تم الاجتماع بدار عبد الرحمن المط في حي الحاضر حيث أطلق القاوقجي الرصاص الأولى وقاد شبان الحاضر السيد مصطفى عاشور إلى بستان العدسة لمهاجم ثكنة المرباط. وكان في حماة عدد من ثوار مدينة حمص منهم عبد الهادي المعصراني وفؤاد رسلان الذين كانوا يخططون لقيام الثورة في مدينة حمص.

وبدأ الثوار بالاستيلاء على مخافر الشرطة في حي الحاضر ودار الحكومة في حماة وأطلقوا السجناء. وهنا يقول الشهبندر بمذكراته عن رسالة من فوزي القاوقجي في حماة جاء فيها^(١):

في نحو الساعة الثامنة مساءً دخلنا حماة وهاجمنا جميع المخافر وتسلمنا أسلحتها، قبضنا على الدرك والشرطة ثم سرنا إلى دار الحكومة حيث فيها كل قوة الدرك وفرقة من الجيش المختلط فهاجمناها أيضاً، وبعد معركة دامت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل استولينا عليها عنوة وأحرقناها وقتلنا من فيها من الجنود، ثم أخذنا نستعد لمهاجمة المواقع العسكرية الحصينة، وفي الصباح خرج فرسان العدو من الشكنات لملاقاتنا فرددناهم بخسارة عظيمة بعد معركة دامت نصف ساعة على جسر السرايا، ثم طوقنا الشكنات فبدأت المعركة تشد والنجاح حليفنا حتى تكبد العدو خسائر فادحة وفقد أكثر من ثلثي جنده. واستسلم بعض المحاصرين خارج الشكنات مع رشاشاتهم ولم يعد في طاقة المحصورين الدفاع.

ثم وصلت طائرات العدو فأخذت تلقي قنابلها على المدينة فأسقطنا منها طائرتين، وقبيل الظهر وصلت نجدات قوية تمكنت من إنقاذ المحصورين بعد معارك دامية.

وقد ازداد آخر الأمر عدد الأعداء زيادة عظيمة أدت إلى امتناع الكثيرين من وجوه المدينة الذين جبنوا وحافظوا على الحياد عن القيام بوعودهم وعهودهم ولما

(١) الشهبندر ص ٤٩.

أصبح الاستيلاء على الأماكن المملوءة جنوداً متعزداً قررنا الانسحاب لخارج المدينة لنقوم بالحركات الثورية مشتركين مع البدو. كانت خسائر العدو لا تقل عن أربعمئة بين قتيل وجريح في حين كانت خسارتنا خمسة وثلاثين.

وفي ليل السابع من الشهر انسحبنا إلى جهة الشمال وحملنا عريان الموالي على مهاجمة الفرسان الفرنسيين المتحصنين في مراكز قضاء المعرة، وبعد معركة دامت أربع ساعات قهرنا العدو وغنمنا منه ٣٥ رأساً من الخيل و٤٢ بندقية وغير ذلك.

وقد خسر العدو بهذه المعركة ثلاثة ضباط فرنسيين وسبعين جندياً وخسارتنا بدوي واحد. في ٦ تشرين الأول سنة ١٩٢٥ أذاع قائد الموقع الإفرنسي في مدينة حماه بلاغاً بإخضاع المدينة للأحكام العسكرية ومنع التجول. فانسحب القواقجي باتجاه عرب الموالي الذين قبضوا عليه وكادوا يسلمونه للفرنسيين لولا تدخل الشيخ سلطان الطيار الذي أنقذه منهم فاتجه نحو البادية والقوات الفرنسية تلاحقه حتى لجأ إلى العراق عند شيخ قبيلة الدليم وكان القواقجي يعرفه سابقاً، وكان مع القواقجي في الرحلة المجاهد مصطفى الذيب السبسي وأحد المجندين في سرية. كان يرسله لي جلب الصحف من بغداد ليعرف أخبار الثورة في الجبل.

ولما علم أن الثورة امتدت إلى الغوطة وإقليم البلان وإلى جبال لبنان ووادي التيم غير شكله مع رفاهه وامتطى راحلة حتى وصل إلى الضمير بعد حوالي شهر ومنها إلى الغوطة حتى التحق بقيادة الثورة في الجبل.

ومن الفوائد الهامة لثورة حماه:

انسحاب الفرنسيين من الجبل والمساهمة في امتداد وتوسع الثورة خارج حدود الجبل لتتحول إلى ثورة وطنية قومية^(١).

أما الدكتور الشهبندر فيقول بمذكراته عن نتائج ثورة حماه ما يلي:

”كانت ثمرة ثورة حماه من أطيّب الثمار لأنها ما هبت ريحها حتى صدمت أشربة غاملان المنشورة في جبل الدروز. فأقلعت بها عنه.

(١) مذكرات: حلقة ١٢.

ثم أن هذه الثورة سببت تجزئة الجيش الفرنسي وأرغمته على اتخاذ خطة الدفاع بعدما كان مهاجماً ومكنت الثوار فيما بعد من الجبل والمرج والغوطة من الدخول إلى دمشق لذلك الظفر الذي كاد يقضي على فرنسا في سوريا.

والحق يقال أخيراً إن ثورة حماه لم تنته بانسحاب مقاتليها من المدينة لأن أبناء حماه قاموا بمنازلة القوات الفرنسية من إخوانهم بمنطقة حمص والغوطة ووادي فيسان. والضيعة وجبل العرب، وقد كان أبناء حماه من أعنف الثوار في المعارك خاصة بعدما كلف القائد العام للثورة السورية سلطان باشا الأطرش الشائر سعيد العاص بقيادة الثورة في الشمال بكتاب رسمي^(١). يذكر منير الرئيس في كتابه ص ٤٠٠ ما يلي:

"توجهت مجموعة سعيد العاص من الغوطة لتنظيم الثورة في الشمال اعتباراً من جبرود والنبك "القلمون" وبدأت بجميل العلواني وعلاء الكيلاني ومنير الرئيس وسعيد الترماني وميشيل نحاس ومصطفى الذيب من حماه.

محمد علي الدروبي - شاكر السباعي - مرعي التركاوي من مدينة حمص وفائق الكيالي ورشاد ملص من دمشق، وأبو علي رشيد الصحنائي من الجبل وعبد الله المغربي ومحمد المغربي وعبد المجيد المرادوي من الجنود الفارين من الجيش الفرنسي وقد انظموا إلى الثورة".

وبدأت هذه المجموعة بتجميع الثوار وخوض المعارك اعتباراً من جبرود والنبك حتى منطقة حمص وجبال أكروم والهرمل وكان معهم عبد الرحمن المطر وعبدو سويدان ونظير النشواتي وعمر المجرص وفؤاد رسلان وحسين جراد والدكتور خالد الخطيب وأمين رويحة، وكان من هؤلاء المجاهدين الأبطال الكثير من الشهداء الذين رووا بدمائهم تربة الوطن وساهموا بتحقيق استقلاله ورفعته.

القيادة العامة للثورة الوطنية السورية

رقم ١٢٩ - جبل اللوز ١٤ كانون الأول سنة ١٩٢٥

^(١) منير الرئيس في كتابه ص ٤٠٠.

حضرة القائم مقام سعيد بيك العاص:

بالنظر إلى تشوق أخواننا أهل حمص وحماء ونواحيها إلى الاشتراك في إنقاذ الوطن وإلى ضرورة توسيع دائرة الثورة إلى تلك الجهات وإلى وجود رهط من أفاضل الشباب الوطنيين الذين اجتمعوا هنا للسفر لبلادهم هناك على نية الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال، وبناء على كونكم أثبتتم تفانيكم في هذا الجهاد الوطني، فقد عيناكم قائداً لحملة حمص وحماء على أن تصرفوا وإخوانكم المتوجيهم إلى تلك الجهة جميع المساعي لتوسيع دائرة الثورة وتنظيم أمورها ومنع كل اعتداء يقع في غير محله على أحد من أبناء الوطن. وعلى أن يكون ارتباطكم بقائد الجبهة الشمالية العام القائم مقام محمد بيك اسماعيل الذي عهد إليه بإدارة الحركات العسكرية مع الصلاحية التامة لتنظيم جميع الأمور العائدة لإظهار الثورة بمظهرها اللائق، وعلى أن تخبروا أعيان تلك الجهة ورؤساء عشائرها، فإن اتفقت كلمتهم على رئاسة أحد منهم ليكون قائداً لجبهة حمص وحماء فلكم معه رئاسة أركان الحرب على أن نخبرونا على من يكون الاتفاق، هذا أمر ضروري جداً لأسباب عمومية ومحلية لا تخفى عليكم والله تعالى يوفقكم وجميع المجاهدين.

سلطان باشا الأطرش

قائد جيش الثورة السورية الكبرى

صفحة من الأيام الحمراء: ص ١٣٥

- كتاب سلطان باشا الأطرش إلى سعيد العاص حول تأليف حكومة وطنية:

جناب حضرة الأجل الأمجد المحترم:

تحية واحترام. عسى أن تكونوا وعموم رفقاءكم حاصلين على تمام الصحة والعافية.

لاغرو فالله عز وجل وفق سعيكم كونه خالصاً لوجه الله تعالى ومقصوداً به إعزاز الوطن والبلاد السورية أجمع. وعليه حيث أن الغاية شريفة ومقدسة فبدون شك

سيكون النصر حليف المخلصين. وقد حررنا لإخواننا زيد وصياح ولجميع الرؤساء الموجودين في الغوطة والأقليم لأجل أن يوحدوا قواهم ويتفاهموا مع عموم رؤساء العصابات ورجال الثورة الوطنيين لأجل إن أمكن تأليف حكومة وطنية بالمركز الذي يختاره أهل البلاد لأننا هنا بالذاكرة مع حضرة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر على ذلك وأريد الإسراع بهذا الأمر، وإذا تم الأمر على هذه الفكرة يلزم انتداب معروفين بالنزاهة والاستقامة حتى ينظر جميع الأهليين نخوة رجال الوطن بحقوق البلاد.

نحن هنا بحوله تعالى بهذين اليومين سنعمل حركة على قلعة بصر الحرير وإزرع. العسكر خرج من بصرى اسكي شام والمسيطرة. وأهل السويداء ذهبوا للمسيطرة وحرقوا ما بقي من خيام العسكر. الأمل أن تداوموا على أعمالكم وتربوا رجالكم العاقلين النزيهين كي يكسبوا ثقة الأهالي وتزول من فكرهم الإجراءات السابقة التي ارتكبتها بعض رجال العصابات.

ب- أهم معارك الغوطة

بينما كانت المصادمات تجري بجوار العاصي. كانت تدور بجوار بردي مصادمات أخرى بعدما تحمّس للثورة الكثير من أهالي دمشق وسكان معاقل الغوطة، فقاموا بهاجمون المخافر والمراكز الحكومية ويخططون مع قيادة الثورة في الجبل لمهاجمة مدينة دمشق من جديد.

وهنا يذكر سلطان الأطرش بذكراته ما يلي^(١):

في غضون شهر أيلول ١٩٢٥ أفضينا بمهمة إشعال نار الثورة في بادية تدمر للضابط العربي رمضان شلاش الذي ينتمي لإحدى عشائر منطقة دير الزور ومعه نفر من الفرسان وتعهد لنا بأن يكون تعاونه وثيقاً وفعالاً مع قادة المجاهدين في القلمون والغوطة، كذلك تعهد حسن طعان الدندشي بإضرام نار الثورة في منطقة تل كلخ والتعاون مع السيد توفيق هولو جعفر في سبيل نشرها بجبل الهرمل والمناطق المجاورة.

(١) مذكرات ح ١٠.

أما السيد حسن الخراط فلم يلبث أن غادر الجبل إلى الغوطة ليساهم هناك بعمليات حربية كانت ممهدة للعملية الكبرى التي حاول بها المجاهدون احتلال العاصمة نفسها ورافقه عدد من ثوار الجبل على رأسهم المجاهد الكبير نايف عجاج نصر.

وكان للدكتور الشواف والدكتور رويحة فضل كبير في تأسيس مستوصف مدينة السويداء بدار شاهين أبو عسلي لمعالجة المرضى وإسعاف الجرحى فيه (وفي أماكن أخرى كانا يذهبان إليها للغاية الإنسانية نفسها بالإضافة إلى فضلتهما بالمشاركة بمعارك الجهاد داخل الجبل وخارجه).

أما معارك الغوطة فهي كثيرة ومتعددة نكتفي بأبرزها:

١ - موقعة الزور الأولى:

عن منير الرئيس: (توافد ثوار دمشق والقادمون من الجبل نحو الغوطة إلى موقع الزور. وكان منهم الشيخ عرب الخيمي وعبد الوهاب الرجولة ونديم شهاب ومنير الطحان وحسن المقبعة ومحمد الخطيب وأبو صلاح العرجا وشفيق السكري والتحق بهم بعض الفلاحين الشجعان بالإضافة للقادمين من الجبل مثل حسن الخراط ومن معه. وانضم إليهم عبدو وذيب الشيخ وفريق من شباب حي العمارة وفلاحى جوبر. وكان العدو حوالي مائة فارس، وقد أرسل الفرنسيون فصيلاً من الدرك أكثر من مائة خيال إلى المليحة بقيادة رفيق العظمة وأديب كفرطنا وعبد الرحيم الداغستاني وأحمد يغمور، وقد تحاشى هؤلاء الاصطدام مع أبناء بلدهم، وقد نام الأفراد في بيوت الفلاحين والضباط في بيت المختار، فهاجمتهم عصابة الثوار وهم نيام في الليل بالاتفاق مع المختار وأهالي البلد فاعتقلوا الدرك وكسبوا بوابيدهم وخيولهم، ثم أطلقوا سراح الأفراد وأرسلوا الضباط إلى سلطان الأطرش في الجبل. فغنى عنهم لأنهم تحاشوا الاصطدام مع الثوار ولم يقاوموا المجاهدين وكفلهم زكي الدروبي وصادق الداغستاني من ضباط الدرك السابقين، الذين التحقوا بالثورة، وقد كان لهذه المعركة تأثير حسن في النفوس شجع المجاهدين على دخول دمشق فيما بعد (منير الرئيس ص ٢٧٧).

ثم تقابل الثوار مع حملة أكثر من ألف جندي في منطقة الزور ترافقها الدبابات والمصفحات والطائرات وكانت قد وصلت نجدات المجاهدين من المقرن الشمالي في الجبل وأعراب عشيرة الغياث. ففضوا على كثير من الجنود وأسقطوا إحدى الطائرات ثم تقدموا إلى ضمير فهاجموا قوة البادية الفرنسية واستولوا عليها قبل الفجر وغنموا أكثر من ثمانين ذلواً وعشرات البنادق والذخيرة.

٢ - الهجوم على دمشق:

يذكر منير الرئيس في الكتاب الذهبي ما يلي:

رسم الثائرون الخطة لدخول دمشق فدخلوها من ثلاث جهات إذ توجهت ثلاث سرايا في ١٨/١٠/١٩٢٥. سرية الدروز مع نسيب البكري - دخلت حي الميدان بعد الظهر.

السرية الثانية مع ذيب الشيخ من بساتين باب السلام والعقيبة، ودخلت السرية الثالثة ومعها حسن الخراط وعصابته ولفيف من دروز جرمانا من بساتين الشاغور، بعد معركة مع الجنود السنغاليين قرب المقابر المسيحية واليهودية وقد هرب الجنود أمام ضغط الثائرين.

وقد انهارت مقاومة بعض المخافر في مناطق الهجوم وأغلقت مدينة دمشق حوايتها عندما سمعت أزيز الرصاص وتفجر القنابل وعرفوا أن سرايا الثائرين أصبحت تجوب شوارع مدينتهم وأحياءها القديمة، واشتبك الثوار مع الفرنسيين المحصنين في ثكنات الحميدية وقلعة دمشق وبوابة الصالحية وطريق بيروت في المرة.

ولما وصلت قوة الثوار إلى الأسواق علمت أن الجنرال "ساراي" يزور قصر العظم الأثري في البزورية المجاور للمسجد الأموي، فهب فريق من مسلحي دمشق والدروز لمهاجمة القصر من بابه ومن سطوح المنازل المجاورة له. وكان الجنرال في تلك اللحظة قد غادر القصر تحمله مدرعة إلى جادة الصالحية. ثم نشبت معركة بين الثائرين والفرنسيين أدت لاحتراق جانب من القصر وتعطل سيارة رشاش وقتل أفراد طاقمها، وجرح بعضهم بينهم اليوتنان (دي روايبير) وضابط صف وجندي قتلوا في

المعركة واستشهد في هذه المعارك حسن المقبعة من مجاهدي دمشق وأبو علي كليب من مجاهدي جرمانا. وعاد الثوار إلى الشاغور بعد هروب ساراي^(١).

حاول الفرنسيون أن يثيروا حرباً طائفية بين الأهالي ففسحوا المجال أمام الثوار للقتل وسرقة الأحياء المسيحية واليهودية ليتهموا الثورة بأنها طائفية. لكن الثوار كانوا واعين فظلموا الأهلين جميعاً واحترموا منازلهم وأفهموهم أن غايتهم طرد المستعمر وتحرير الوطن للجميع.

حاول الفرنسيون موزانتهم ولم يعد أمامهم إلا أن يستروا هزيمتهم بقصف أحياء دمشق القديمة التي احتلها الثوار بقذائف وقنابل طائراتهم وقذائف النفط المحرقة التي أشعلت الحرائق في كل مكان. وقد أكلت قنابل الحرق والتدمير خلال أربعة وعشرين ساعة ما يربو على ستمائة دار من أحسن الدور تقدر قيمة كل منها بملايين الجنيهات كما نزل الجنود بدباباتهم ومصفحاتهم للأسواق التجارية يكسرون أبواب الحوانيت والمخازن الطافحة بالبضائع والمجوهرات ليسلبوا وينهبوا ما فيها وما في البيوت من أمتعة وأوانٍ ثمينة حتى امتلأت بيوت (٠٠٠) بتحف ورياشن الدماشقة^(٢) وقد اشتعل حي سيدي عمود والسوق المجاورة بما فيها من تحف وآثار ولا يزال الحي حتى الآن يعرف بحي الحريقة وهو وسط دمشق. وقد رثى الشعراء مدينة دمشق المحترقة بأروع القصائد.

فهذا الشاعر خير الدين الزركلي في مهرجان كبير لنصرة الثوار في القاهرة يقول:

الأهل أهلي والديار ديار	وشعار وادي النيربين شعاري
ما كان من أثم بجلق نازل	وأرى الزناد فرنده بي واري
صبرت دمشق على النكال ليالياً	حرم الرقاد بها على الأشفار

(١) منير الريس: الكتاب الذهبي.

(٢) الدكتور الشهبندر ص ٥٥.

يا وامض البرق اطمئن وناجني إن كنت مطلعاً على الأسرار
 ما انهار قصر في حماك ممرد ألا ليرفع فيك قصر فخار
 وإذا الظلام عتا تبلج فجره ظلم الحوادث مطلع الأنوار

كذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته المشهورة:

سلام من صبا بردي أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

وقد احتج قناصل وسفراء الدول الأجنبية على حريق دمشق وحمل الاحتجاج القنصل الأقدم "قنصل بريطانيا" وأقيمت المهرجانات والمظاهرات انتصاراً للثورة في كثير من المدن العربية والمهجر في أمريكا اللاتينية وصدرت الصحف التي تتدد بفرنسا وأعمالها البربرية في كثير من بلدان العالم وحتى في فرنسا نفسها.

وأخيراً عندما أخذت المنازل تحترق وتتهدم على الأطفال والنساء بدمشق خف الوجهاء يطلبون من الثائرين تخفيف القصف بمغادرة الأحياء.

فوافق الثوار عندما علموا أن قواتهم غير قادرة على الإقامة في المدينة مع قصف أثار الرعب الذي استولى على النساء والأطفال من مواصلة القنابل على الأحياء وتحليق الطائرات في السماء وضرب البيوت من غير تعيين فوافقوا على الانسحاب يوم الثلاثاء في ٣٠/١٠/١٩٢٥ ولم يوقف غاملان القصف إلا بعد أن فرض على المدينة مئة ألف ليرة ذهبية وثلاثة آلاف بندقية مع عتاها غرامة جزاء لمساعدتهم الثوار وقد فرض على الحكومة تسليمه المبلغ فوراً على أن تجنيه فيما بعد من السكان مع ضريبة العقارات^(١).

٣- معركة يلدا وبيلا {النصر الكبير بعد معركة المزرعة}:

خير من يصف هذه المعركة الأستاذ منير الرئيس الذي خاض غمارها بنفسه إذ

يقول:

^(١) الرئيس: ص ٢٨٣.

جاءت من الجبل قوات من المجاهدين الدروز بطريق الغوطة لنجدة الثوار في إقليم
البلان ووادي التيم بقيادة متعب الأطرش وعلي الأطرش.

وقد كنت في عقربا عندما جاءني رسالة من نزيه مؤيد العظم تشير إلى أن حملة
كبرى من الفرنسيين ستزحف في الصباح الباكر إلى قريتي "يلدا وبيلا" مقر
الثائرين في الغوطة وتطلب مني التوجه نحوه والاستعداد للقاء الحملة بمن معي من
المجاهدين.

وقد توجهنا إلى قيادتنا "محمد عز الدين" لنخوض المعركة معاً. سرنا مع فجر
الخامس من كانون الأول من قرية عقربا نحو دير العصافير، ومع بزوغ الشمس بدأ
أزيز الرصاص من حي الميدان، ورأينا محمد عز الدين بقواته قادماً نحونا بعد أن
انضم إليه فريق من مجاهدي الميدان على رأسهم عبد القادر سكر وانضمت إليهم
أيضاً القوة القادمة من إقليم البلان بقيادة متعب وعلي الأطرش وأقبل مسلحو جرمانا
بالعشرات وقد اكتشفنا إحدى الطائرات قرب عقربا وقصفتنا بالقنابل. بلغنا قرية
بيلا وكان جيش العدو قد وصلها بعد أن اصطدم لمدة ساعتين بمجاهدي الميدان
ومسلحي يلدا وبيلا وكان الزحف من قواتنا مركزاً في أول الأمر على جناح العدو
الأيسر ومقدمته. ثم أخذت قواتنا تحيط به، وكانت حملته في ذلك اليوم تبلغ عدة
آلاف من الفرسان والمشاة ومفارز الرشاشات والجنود المغاربة والفرق الأجنبية
والسنغال ومتطوعة الشركس وغيرهم تحميهم سبع دبابات وست طائرات ومدفعية
قوية تساعد المدفعية من قلاع دمشق وثكناتها. وقد ذهل العدو حيث وجد نفسه
أمام جيش من الدروز أحاط به فجأة وصدم مقدمته وجناحيه، وأنزل به من الخسائر
في أقل من ساعة ما لم يكن يتوقعه فتوقف أولاً عن الزحف وأخذ يدافع عن الثبات
بمواقع بنيارنه الكثيفة.

ولكن أبطال الدروز وبينهم القادمون الجدد من السويدياء تبادلوا مع العدو
الرمانات اليدوية على مسافة لا تزيد عن أربعين متراً، مستفيدين من موانع الغوطة
وأسجارها الكثيفة وأقنيتها وجدرانها للدنو منه. ثم قاموا بهجوم على مواقع
الرشاشات التي تحمي العدو فسقط ستة مجاهدين، ووصل الباقون إلى الرشاشات
يصرعون جنودها برصاصهم وسيوفهم، فاندحر العدو أمامهم وتضعضت صفوفه

الباقية ودبت فيها الهزيمة، ولحقت بها الدبابات تخشى ان يصيبها ما أصاب المدرعات الفرنسية بمعركة المزرعة. فهربت وجثث القتلى والجرحى من الفرنسيين تغطي أرض المعركة، فلا يجد المنهزمون وقتاً لحملهم معهم. وما انتصف النهار حتى كان المجاهدون على أبواب مدينة دمشق، والحملة تلجأ إلى أوكارها في المقبرة وثكنة القدم ومعمل الخط الحديدي. وما لبث المجاهدون أن أرغموا الجنود المحصنين في المقبرة على مغادرتها ففروا يتعقبهم المجاهدون في شوارع دمشق وأزقتها. والنساء والأولاد يستقبلون المجاهدين بالأكل والشرب والتصفيق والتهليل يزغردون وقد سفرن عن وجوههن وهن المحجبات لاستقبال المجاهدين بالترحاب.

واضطرب الفرنسيون من هذه الهزيمة التي لم تدخل في حساباتهم. ومالأت الدبابات والمصفحات البساتين المجاورة لحي الميدان والطائرات تساعد بالقصف لعدة أيام. وعاد المجاهدون بالغنائم من ١٥٠ بندقية وثلاث رشاشات وعتاد كثير وزادت خسائر العدو على ستمائة قتيل وجريح.

يضيف منير الريس في كتابه الذهبي ص ٢٧٥ ما يلي:

٤- وشائج العروبة:

بلغنا في ١٣ كانون الأول سنة ١٩٢٥ قرية قبر الست وعلمنا أن الفرنسيين سيتوجهون من أربع جهات لتطويق المجاهدين في الغوطة، ثم تبين من مصدر الثقة أن الزحف كان لإحداث مخافر حصينة - وعلى ذكر المصدر الثقة أحب أن أوضح أن الكابيتين "عطاف" الضابط المغربي في كتائب الفرسان الصباحيين في دمشق قدم خدمات جليلة للثائرين في الغوطة فقد كان هذا العربي المخلص بحكم وظيفته يطلع على الأوامر العسكرية التي تصدر قبل حين للزحف وتزويد القادة بمهماتهم وخطة الزحف.

فكان هذا العربي الشهم يبادر فوراً إلى الاتصال بالأمير طاهر الجزائري وغيره من الوطنيين المغاربة بدمشق ويطلعهم على الأوامر الصادرة إليه وهؤلاء يقومون بدورهم بإبلاغ أخوانهم الوطنيين لإبلاغ قادة الثورة في الغوطة قبل حين من تنفيذ الخطة الفرنسية ليكونوا على حذر ويستعدوا للقتال. وكان هذا الضابط العربي وأخوانه من الضباط والجنود المغاربة يتعرضون مع الفرنسيين لرصاص الثائرين دون

تميز بينهم وبين الكتائب الأخرى، أما من جانبهم فكثيراً ما كانوا يطلقون رصاص بنادقهم طائشاً في الهواء حتى لا يصيبوا بني قومهم من الشوار، وكلما سنحت لهم الفرصة ألقوا ببعض عتادهم وذخائهم في الحفر وراء الأشجار حتى أصبحنا نجد بعد كل معركة بالغوطة كميات من العتاد الفرنسي - بنادق وصناديق ذخيرة وغيرها - نجمعها ونزود بها أخواننا المجاهدين. وكم استفدنا من رصاصهم القاتل الذي نأخذه منهم ثم نوجهه إليهم ليقتلهم مسرورين ومتقيدين بالمبدأ القائل: "علي وعلى أعدائي يا رب" فقد كانوا يؤثرون إخوان الدين والعروبة على أنفسهم. ولم يكتفوا بهذا فقد فرّ عدد منهم إلى صفوف الثائرين وعرضوا عائلاتهم في المغرب لبطش فرنسا وقتلوا حتى استشهدوا في سبيل حرية بلاد الشام المقدسة في نظرهم.

وقد رافقنا في الغوطة جنديان مغربيان هما محمد وعبد الله وجندي ثالث فلسطيني من قرى نابلس هو عبد الحميد المرداوي. فروا من الجيش الفرنسي والتحقوا بثورة الغوطة يقاتلون الفرنسيين معنا حتى استشهد محمد المغربي في معركة وادي فيسان في الهرمل شمال لبنان. واستشهد من الجنود المغاربة الملتحقين بثورتنا اثنان في منطقة القلمون بقذيفة مدفع أصابتها وهما على رشاش يقاتلان العدو رحمهما الله.

٥- معارك جوبر وحمورية:

في شهر كانون الأول عام ١٩٢٥. جاء عن رواية نقلها أهالي جوبر للريس ما يلي: "في ١٤/١٢/١٩٢٥ خرج الفرنسيون بجيش لجب بضعة آلاف من المغاربة والفرقة الأجنبية والجوقة السورية ترافقهم عشرون دبابة ومتطوعة الشركس وتمهد لهم المدفعية من قلاع دمشق وثكناتها، فكمن لهم مجاهدو جوبر في مجرى نهر تورا الجاف والبساتين المطلة على طريق دوما، ودارت المعركة بين الفريقين نحو ساعتين تابعت الحملة بعدها إلى عربين حيث صادمتها عصاية أولاد عكاشة في بساتين القرية وظلوا يناوشونها مع مجاهدي جوبر حتى بلغت دوما وعسكرت في بساتينها وقد استشهد سبعة من المجاهدين وجرح بضعة عشر.

أما خسائر الحملة فقدرت بمئات القتلى والجرحى. وفي صباح الخامس عشر وصل الثوار قرية جوبر في حين دخلتها الحملة من الجهة الثانية لتتأثر من أهلها.

وبعد معارك ثلاث ساعات دامت في أزقة جوبر وبيوتها هرب الجند أمام بنادق الثوار التي أصلتهم ناراً حامية ثم ركزت الحملة على قرية جوبر وبساتينها بقنابل المدفعية والطائرات بقنابلها ورشاشاتها. لكن الثوار استمروا بملاحقة جنود الحملة المتقهقرة حتى دخلت دمشق لتلوذ بثكناتها وفي المستشفى الإنكليزي في القصاع.

وعاد الثوار مبهتهجين لقرية جوبر حيث قدم لهم الأهالي العشاء والشراب تحت وابل قنابل المدفعية المتساقطة على القرية من الثكنات الفرنسية بدمشق.

وقد كانت خسائر الثوار ثلاثة شهداء من بينهم المرحوم مصطفى الأغواني وأربعة جرحى. أما خسائر العدو فكانت بالمئات^(١) وفي ختام المعركة لم يتمالك حسن الخراط نفسه فتقدم يقبل شاري محمد عز الدين الحلبي إعجاباً بما أبداه من بطولة.

واعترف الخراط بأنه لم يخض المعركة وقد أعطى بندقيته لأحد المجاهدين لأن بصره لم يعد يساعده على التسديد^(٢).

وفي السابع عشر من كانون الأول سنة ١٩٢٥ تقدمت حملة فرنسية كبيرة مؤلفة من خيالة ومشاة وآليات إلى قرية حمورية للانتقام من أهلها الذين قتلوا بعض الأفراد من المتطوعين مع الفرنسيين، وكانت مجموعة محمد عز الدين الحلبي قد وصلت إلى قرية عذرا شرق دمشق عندما بلغها أن الحملة الفرنسية توجهت للانتقام من أهالي حمورية.

فأسرع الثوار فرساناً ومشاة يخفون السير لدخول حمورية قبل دخول الحملة الفرنسية وهنا يذكر منير الرئيس ما يلي:

توجهنا مسرعين لندخل حمورية قبل دخول الحملة وتقدمت مع مجاهدين مشاة من الجبل مبتعدين عن بقية رفاقنا، ففوجئنا بقوات العدو متمركزة في القرية

(١) رواية أهالي جوبر.

(٢) الرئيس ص ٣٨٠.

وبساتينها وأصلونا ناراً حامية استشهد على أثرها أحد رفاقي وجرح الآخر وكادت تودي بحياتي.

فانسحبت بقناة عميقة فيها الماء لأصادف كواكب الشر كس والجنود الفرنسيين في الجهة الثانية. وكانت بندقيتي قد انفجرت سبطانيتها لامتلاء بابها بالتراب الناعم فأصبحت كالعصا وتشجعت فمررت بين كتيبتين فرنسيتين ظنوني جندياً منهم لأنني كنت أرتمي معطفاً عسكرياً من غنائم الجيش الفرنسي فنجوت من الموت بأعجوبة بالرغم من فصائل الجند الكثيرة أمامي وقد أحرقت حمورية وقتل الكثير من أهلها وشردت النساء والأطفال فاضطررت لأدس نفسي في كومة من قش القنب حولها عشرات الأكوام.

ومر الجند من حولي يخبّون دون أن يدركوا مكاني. وكنت أسمع صوت اللهب يلتهم أكوام القنب عندما أشعل الجنود النار فيها. وركنت أنتظر وصول النار إلى مخبئي على أتمكن من الهرب خلال اللهب والدخان المتصاعد، وكم كانت دهشتي عندما استيقضت في الصباح لأجد الأكوام كلها محروقة عدا الكومة التي أختبئ فيها وكومة إلى جانبها، وهكذا نجوت من الموت بأعجوبة.

ونهبضت لأدخل حمورية وكان الفرنسيون قد غادروها. لأجد القتل والحرق وتشريد النساء والأطفال على أبشع صورة تعرضت لها هذه القرية المناضلة من الحملة الطاغية وجنودها الحاقدين.

وتقدمت بعدها في الغوطة لألتقي بقوة محمد عز الدين صباح الواحد والعشرين قرب حران العواميد - فهناؤني بالسلامة لاعتقادهم أنني صرت في عداد الشهداء.

التقيت بعدها بشكري القوتلي والعقيد الركن اسماعيل الطباخ والمقدم الركن مصطفى وصفي قادمين من الجبل وعقدنا اجتماعاً معهم لتلافي الحال التي وصلت إليها الأمور في الغوطة وإصلاح الوضع^(١).

(١) الرئيس ص ٣٩٦.

في الثاني والعشرين من كانون الأول وصل القادة المذكورون سابقاً إلى الجريا قرية فخري البارودي وفيها منزله الريفي وقد كتب أحد الخلان على الجدران قصيدة طويلة يشكو من براغيث القرية وسوء حال ضيوفها مطلعها:

يا صاحب الجريا بلاك الله بالجرب

وكانت الغوطة قد طوقت بالمخافر المحصنة بحاميات قوية - شيعا - دوما - أوتايا - حوش خرابو - وقرية مرج سلطان الشركسية المسلحة جيداً والتابعة للحرس الفرنسي.

خرجت حملة في الحادي والعشرين من دمشق باتجاه يلداء وبيلا وباغتت في الطريق حسن الخراط مع أفراد عصابته يكمنون في أرض مشجرة، وبعد معركة ضارية استشهد حسن الخراط فيها ودفن في بيلا^(١) وقد جاء بمذكرات الشهبندر أن حسن الخراط الذي جرح بكتفه في معركة الزور الثانية التي وقعت في ١٨ تشرين الأول سنة ١٩٢٥ قضى نحبه غداً على أيدي اثنين من الجنود المختبئين وذلك في وقعة يلداء في الحادي والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٢٥.

وبعد اجتماع الجريا في ١٢/٢٢/١٩٢٥ غادر محمد عز الدين ببقايا قواته إلى الجبل ومعه اسماعيل الطباخ وشكري القوتلي ومصطفى وصفي خليل الحموي وصبري العسلي ونسيب شهاب وفائق العسلي وغيرهم من مثقفي دمشق الثائرين، وبعضهم تابع طريقه إلى شرق الأردن. أما العقيد سعيد العاص وفؤاد رسلان وخير الدين اللبابيدي والأخوان المعصرانيان ومنير الريس وجميل العلواني ومحمد علي الدروبي وإبراهيم صدقي والدكتور خالد الخطيب فقد عقدوا اجتماعاً في الجريا وقرروا توسيع الثورة شمالاً إلى القلمون وحمص، عدا الدكتور خالد الخطيب الذي عاد إلى الجبل حيث المستوصف والخدمة الوطنية والإنسانية. وانتقل الآخرون إلى النبك والقلمون يدعون للثورة هناك.

(١) الشهبندر ص ٦٤.

معركة النيك الكبرى

منذ تشرين الأول سنة ١٩٢٥ تشكلت أربع عصابات ثورية في منطقة القلمون هي: عصابة جبل القلمون وعصابة النيك وعصابة عكاشة وعصابة حسن الخراط، واصطدمت هذه العصابات مع العدو بمعارك متعددة انتصرت في أكثرها وأسرت الضابط "بهيجا" وغنمت عدداً من الرشاشات الكبيرة والصغيرة والذخيرة والعتاد وعدداً من سيارات نقل الجنود. وكبدت العدو الكثير من القتلى والجرحى.

في ربيع ١٩٢٦ قرر الزعماء اتخاذ النيك مركزاً للثورة في منطقة القلمون بعدما خمدت فيها النار من جراء الفوضى والمعاملات الشاذة التي عمل الناس بها وهذا المركز سيكون هاماً إذا اشتد ساعده لأنه يمكن أن يهدد حمص وحماه بشكل دائم.

لذلك جهز العدو في حمص حملة كبيرة بقيادة الجنرال مارتي المشهور بتظيم الحروب الجبلية تتألف من أربعة آلاف من المشاة وألفي جندي من الفرسان وثمانية مدافع ومصفحات وأعتدة أخرى كاملة منها سبعون رشاشاً^(١) وقد ورد بمذكرات منير الرئيس بهذا السياق ما يلي:

في آذار سنة ١٩٢٦ بلغنا أن الحال في القلمون ساءت جداً وتقرر أن يذهب فوزي القاوقجي بمن معه من فرسان الدروز وسعيد العاص ومن رافقه من الشباب إلى القلمون لإصلاح الوضع من جديد. تقدمنا نحو النيك وأنذرنا أهالي دير عطية بأن يستسلموا وإلا أحرقنا البلد فاستجابوا وفرضنا عليهم أن يقدموا بعض الأسلحة والذخيرة للشوار الذين ناموا ليلتها عندهم على فرش وثيرة وقد علمنا أن الحملة الفرنسية ستهاجم قارة وتحتل النيك، فتقدمنا سعيد العاص والقاوقجي وحوالي مئة مسلح نحو موقع عيون العلق لنجابه الحملة، ففاجأتنا طائرة فرنسية بقنابلها ورشاشاتها وانسحبت بعد إطلاق النار عليها بشدة وقد أدركنا أن الحملة قادمة. فتربصنا باستحكامات في التل مع فوزي القاوقجي وسعيد العاص وإبراهيم صدقي وبقية الثوار واشتبكنا بمعركة مع الدبابات والفرسان الصباحيين وفيالق الجنود التي أخذت تطوفنا فانسحب أكثر رفاقنا من شدة القصف وضغط نيران العدو. وصمدنا حوالي عشرة مقاتلين منهم سعيد العاص والقاوقجي على التلين بجانب

(١) الشهبندر ص ٧١.

الطريق وكاد يتم تطويقنا. وفجأة انتشر ضباب كثيف غطى المنطقة والعدو على بعد عشرات الأمتار عنا فانسحبنا تحت جناح الضباب لنجد بقية رفاقنا قرب قارة متجهين نحو دير عطية وكان أهلها يطلقون النار على الشائرين عندما سمعوا أصوات المدافع الفرنسية تقترب منهم وقد استشهد الضابط الشاب الوطني المثالي إبراهيم صدقي الذي وقف بوجه الحملة يقاتل، وقد خذلنا خالد النفوري وأبو عمر ذيبو فانسحبوا مع عناصرها من المعركة وتركانا وحدنا مع بعض المسلحين ومع فرسان الدروز وأهل النبك لندافع عن مدينة النبك. وفي مساء ٣ آذار اجتمع القواقجي والعاص ومسلحو النبك وقرروا الدفاع عن البلدة وانتدب سعيد العاص ونزيه المؤيد وخير الدين اللبابيدي وصادق الداغستاني وأحمد المنلا مع بعض العناصر ليتحصنوا في التلال الغربية حتى لا يحتلها العدو.

ونظم القواقجي وباقي المسلحين خط الدفاع عن البلدة^(١)، تقدمت الحملة من النبك في الصباح الباكر بدبابيتها ومدفيعتها وطائراتها، لكنها توقفت أمام دفاع الثوار الصامدين طيلة النهار حتى المساء وهم يقاتلون شبراً شبراً. ومن حجر إلى حجر وتكبد العدو أكثر من خمسين قتيلاً قبل أن يخيم الظلام ويوقف المعركة. وكان العدو قد احتل المستشفى الهولندي غرب البلدة.

وفي اليوم التالي أعاد المجاهدون الكرة على العدو فهاجموا المستشفى الهولندي واحتلوه عنوة بعدما اخترقوا صفوف الفرنسيين وهزموهم شر هزيمة واستعادوا جميع ما أضاعوه بثلاث هجمات متواليات وربحوا خيلاً وسلاحاً وعتاداً وأفرأ وعطبوا مصفحتين فعملوهم^(٢). واستمر المجاهدون ينازلون العدو حول النبك حتى ١٥ آذار حيث اضطروا للانسحاب لنفاذ ذخيرتهم واحتل الفرنسيون البلدة.

وقد كانت معركة النبك هذه من أكبر معارك القلمون التي ظهر فيها تفوق الشائر بنظامه واستبساله. وقد ذكر سعيد العاص أن العدو خسر في اليوم الأول ثلاثة أرباع مدفيعته وفي اليوم الثاني زهاء أربعمئة قتيل، وقد دافع أهالي النبك عن بلدتهم وأوطانهم دفاع الأبطال وقدموا الكثير من التضحيات والشهداء.

(١) الرئيس ص ٩٩.

(٢) الشهبندر ص ٧٣.

الفصل الثاني

الثورة في وادي التيم وإقليم البلان

أ- دخول حاصبيا وحرق كوكبا

بعد انتصار المزرعة ووصول وفد من دمشق يؤكد استعداد العاصمة للمساهمة في هذه الثورة وثورة حماه واشتداد الحركة الثورية في الغوطة توجهت قوة من الجبل في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩٢٥ لمساعدة نسيب البكري بالهجوم على دمشق والمشاركة بمعارك الغوطة. وكانت هذه القوة حوالي ١٥٠٠ محارب بقيادة زيد الأطرش ومعه حمزة الدرويش وصياح الحمود وحسن الأطرش والعقيد فؤاد سليم وأخوه نصري سليم وسعيد اليماني ونزيه المؤيد العظم وزكي الدروبي وعلي عامر وشكيب وهاب ومحمود كيوان^(١).

وصلت القوة إلى الهيجانة ثم قرية الخيارة في الغوطة وقد قصفتهم الطائرات الفرنسية فيها واستشهد سالم الأطرش ومحمد البربور وبعض الفلاحين من القرية. ثم انتقلت القوة إلى عقربا وبييلا وكان الأهالي يستقبلونهم بالترحاب والمساعدة. وفي هذه الأثناء وصلت رسائل من الإقليم تشرح حادثة قلعة جندل وتطلب نجدة الثوار، وكانت الرسائل محرقة الزوايا دليلاً على أن الأهالي كانوا بأشد حالات الضيق والحر.

ب- تفاصيل الحادث:

إن الكابتين كولييه دخل قلعة جندل على رأس متطوعته "وهي قرية درزية منيعة في سفح جبل الشيخ الشرقي وطلب مائتي بندقية غرامة من البلدة وأخذ ٢٨ رجلاً من الأهليين رهائن لديه، وفي أثناء ذلك وصلت نجدات من أهالي القرية المجاورة

(١) الرئيس ص ٣٠٠.

وحاصرت البلدة وأرغمت المتطوعة على الانسحاب بعد أن أعدم هؤلاء الرهائن بوحشية وبعد أن تركوا أعداداً من قتلاهم^(١).....".

وقد نسف الفرنسيون بعض المنازل في قرية بقعاشا بالمتفجرات وكانوا يثيرون الفتن بين الدروز والمسيحيين ليجعلوها مذبحه طائفية، فتوجهت القوة نحو مجدل شمس مروراً بدرايا وصحنايا حتى عرنة واستقبلهم الأهالي فيها بالزغاريد والنخوات. وفي المجدل جمع زيد الأطرش الوجهاء والقادة من المنطقة في بيت أسعد كنج وأعلن أنه جاء من الجبل بقواته بأمر من سلطان الأطرش لنجدة أهل الإقليم وتلبية طلباتهم والهدف تحرير أرض الوطن من الفرنسيين الغاصبين وأعلمهم أن الأمر شوري بينهم وأنه دعاهم لتحقيق هذه الغاية. وقد اقترح البعض مهاجمة بلدة القنيطرة الشركسية لأنها تقدم المتطوعين للكوكبات الشركسية مع الفرنسيين وتقف موقف العداء للثورة، فسقط هذا الاقتراح حيث قيل في معارضته إن البلدة كلها لا تؤخذ بجريرة بعض أبنائها، والشركس قوم مسلمون هجروا ديارهم في القفقاس لما احتلها المستعمرون الروس وآثروا الهجرة إلى البلاد الإسلامية في سبيل الحفاظ على دينهم، لذلك لا يؤخذون كلهم بجريرة المتطوعين مع الفرنسيين للكسب والنهب.

واقترح البعض توسيع رقعة الثورة إلى حاصبيا ووادي التيم فقبل الاقتراح. وقد أغارت الطائرات الفرنسية عدة مرات على المجدل أثناء هذا الاجتماع وأسقطت إحدى الطائرات هناك برصاص المجاهدين^(٢).

وكانت قيادة حملة الثوار توزع منشوراتها متوجة بالعبارة المشهورة:

"الدين لله والوطن للجميع"

في صباح التاسع من تشرين الأول ١٩٢٥ كانت بعض سرايا الحملة تدخل إلى حاصبيا بقيادة حمزة الدرويش. وكانت الحامية الفرنسية فيها قد لجأت إلى الشيخ حسين قيس قاضي المذهب قبل وصول المجاهدين فأجارها وأخرجها من القرية لتلتحق بمرجعيوها والنبطية.

(١) سلامة عبيد ص ١٦٢.

(٢) الرئيس ص ٢٠٣.

وبينما كان حمزة درويش أحد قادة الثورة يتجول في المنطقة وبصحبه أحد الكهنة "الخوري أبو قمحة" دخل قرية كوكبا بناء على دعوة من أهاليها ولكن المعارضين للثورة في القرية أطلقوا نيرانهم الغزيرة على حمزة درويش ومرافقيه فقتلوا الكاهن وهو من أهالي القرية واثنين من الثوار فهاجم الثوار البلدة وأحرقوا بعض البيوت التي أطلق منها النار عليهم ثم تقدموا نحو مرجعيون فحاصروا الحامية الفرنسية ثم أخذوها بعد معركة حامية.

وقد استغلت فرنسا حرق كوكبا لتثير النعرات الطائفية بين المسيحيين والمسلمين وساعدها في ذلك بعض رجال الدين والإقليميين المتعصبين وبعض التصرفات الفردية التي أساءت لروح الثورة^(١) لكن مناشير قيادة الثورة "وَجَلْها بقلم القائد الشهيد فؤاد سليم" كشفت كثيراً من دسائس الفرنسيين ودعاياتهم الكاذبة.

وقد دعت قرية أبل السقي الثوار لتناول الطعام في قريتهم وأكثر أهاليها من المسيحيين فلبوا الدعوة وناموا تلك الليلة في القرية على خير ونام مع أهاليها. وصل بعد ذلك كتاب من بطرس كرم إلى زعماء الثورة وكله شتائم ووعيد وتهديد.

"بطرس كرم هذا هو أحد اللبنانيين المتفرنسين جلبته السلطة الفرنسية على رأس فئة من المتعصبين لتكسب الثورة صبغة دينية"^(٢) وقد توهم أن الثوار يخشون بأسه فتحرك فيه حس الانتقام وأرسل قوة إلى برغز "وهي مزرعة درزية صغيرة تخص آل شمسي" لكي تحرقها فكمن لها شكيب وهاب ولما وصلت طلائعها المؤلفة من ستة عشر مقاتلاً إلى قرب القرية قبض عليهم شكيب وهاب وأخذ سلاحهم وأطلق سراحهم قائلاً لهم:

يا أخواني اذهبوا وبلغوا جميع أخواننا المسيحيين أننا لا نريد بهم شراً ولا نرغب بمحاربتهم بل نود مقاتلة الفرنسيين. ولما أخبروا إخوانهم وقصوا عليهم الخبر فلم

(١) سلامة عبيد ص ١٦٤.

(٢) الشهبندر ص ٧٩.

يرجعوا عن غيهم بل هاجموا القرية فقابلهم شكيب وهاب ومن معه بالرصاص وأسرع الثوار من حاصبيا إلى المعركة، ولاحقوا بطرس كرم وعصابته الذين ولوا الأدبار نحو الجنود الفرنسيين وفروا جميعا باتجاه صيدا ولم يقتف الثوار أثر المنهزمين لأنهم دخلوا لبنان الصغير الذي قرر الثوار عدم التعرض له فاكثفوا بنسف جسر الخزاولة وعادوا إلى مقرهم في حاصبيا. وقد اشترك في هذه المعارك مع الثوار قسم كبير من أهل العرقوب وفريق من عرب محمود الفاعور^(١).

ب- معركة راشيا واقتحام قلعتها

استتجد أهالي راشيا بالحملة الوطنية واستغاثوا بها لأن الحملة الفرنسية في قلعة راشيا بدأت تسومهم أنواع الظلم والاضطهاد لأنهم موالون للثورة وقد اصطدم الشباب مع الجند صدامات مسلحة أوقعت عدداً من القتلى والجرحى من الجانبين، وعلى الأثر تحصن الفرنسيون في القلعة "السراي" وهي دار من دور الأمراء الشهابيين تسيطر على البلد وتشرف على أكثر الطرقات المؤدية إليها، وأخذوا يطلقون النار على الأهليين الذين استتجدوا بالحملة الوطنية. وسرعان ما دعا زيد الأطرش إلى اجتماع تقرر فيه نجدة راشيا بقوة على رأسها أسد الأطرش وحمزة الدرويش و شكيب وهاب ورافقتها نزيه المؤيد وفريد البدوي وعدد كبير من عشيرة الفاعور وأهل منطقة العرقوب^(٢).

يصف الرئيس اقتحام قلعة راشيا كما يلي:

"وصل الثوار إلى راشيا في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٥ وقد انقسموا إلى أربع فرق كل فرقة أخذت موقعها إزاء جانب من جوانب القلعة التي حصنت نوافذها وأسفلحتها بالحجارة وأكياس الرمل وركزت وراءها الرشاشات وهدمت المنازل المحيطة بالقلعة على بعد ١٠٠ متر منها ونضمت حولها الأسلاك الشائكة الكثيفة لإبعاد المهاجمين عن أسوارها.

^(١) الشهبندر ص ٨٠.

^(٢) الرئيس ص ٣١٢.

فوجد المجاهدون أن الوسيلة الوحيدة للاقترب من القلعة هي فتح ثغرات في جدران المنازل لتهيئ للمجاهدين طريقاً مستترة تجعلهم على مقربة من القلعة وفتحوا ثقباً لبنادقهم في جدران المنازل المواجهة للقلعة ولتحصينات الجنود على سطوح القلعة وفي نوافذها وتقدم المجاهدين يطلقون بشدة من ثقب تلك الجدران نيران بنادقهم على الجانب الذي يواجههم حتى أكرهوا المتحصنين على الابتعاد من هذا الجانب لداخل القلعة، وتقدم بعض المجاهدون نحو الأسلاك الشائكة لكنهم فوجئوا بوابل من القنابل اليدوية ومدافع الهاون تتساقط عليهم من الجنود الذين عرفوا خطة المجاهدين لاقتحام القلعة فجعلوا من المكان جحيماً بقذائف مدافع الهاون ورماتاتهم اليدوية، فجرح وقتل عدد من المجاهدين لكنهم في النهاية استطاعوا أن يقتلعوا الأسلاك الشائكة وجلبوا سلمين طويلين من الخشب شدوا الواحد إلى الآخر كي يبلغا ارتفاع الجدار الذي يزيد على بضعة عشر متراً، وصعد المجاهدون على السلم، الواحد تلو الآخر، وكان في مقدمة الصاعدين شاب من آل جريوع من السويداء ما كاد يصل إلى السلم ويتسلق الحصن حتى أردته رصاصة فهوى شهيداً إلى أرض الحصن، فصعد وراءه مجاهد آخر، صرع أيضاً برصاص الجند وهوى من أعلى السلم إلى الأرض، أما الثالث فتسلق الحصن وألقى على الحصن رمانة يدوية اتبعها بثانية وثالثة انفجرت كلها واقتحم الحصن بعد أن تأكد أن حاميته أصبحت بين قتيل وجريح ومنهزم ولحق به عدد من أخوانه الدروز والدماشقة ومجاهدي البقاع الذين أخذوا يلقون رمانات يدوية على حصون القلعة ويردون الجنود برصاص بنادقهم، فذب الرعب بقلوب الجنود من هذه المباغة الجريئة وأخذوا يفرون إلى داخل القلعة، ولجأ عدد كبير منهم إلى ملجأ كان سقفه الخشبي قريب من الحصن الذي احتله المجاهدون الذين راحوا ينقعون كفياتهم "غطاء رؤوسهم" بزيت النقط ويشعلونها ويلقون بها على سقف الملجأ الخشبي حتى اشتعل وتساقت نيرانه على المحاصرين في المهجع، فذعروا وفروا إلى الأقبية في الدور الأرضي من القلعة يطلقون منها الرصاص وأسهماً نارية مضيئة حمراء كانت تضيء الفضاء فوق القلعة شارة الخطر وطلب النجدة.

وخلال ذلك وجد المجاهدون المحيطون بهذا الجانب من القلعة ممراً ضيقاً إلى القلعة سُدَّ بالحجارة فاقتلعوها ودخلوا القلعة يهزجون وحدائهم يقطع نياط قلوب المحاصرين ثم استطاعوا أن يحطموا باب القلعة ويدخلوا منه مهلين مكبرين وأحاطوا بالأقبية التي حوصر فيها الجند، ولكن الطائرات الفرنسية وصلت في تلك اللحظة، وأخذت تحوم فوق القلعة وتلقي قنابلها على القادمين إلى البلدة والخارجين منها. ولم تلق قنابلها على البلدة خشية أن تصيب القلعة وفيها الحامية الفرنسية. ولكنها ألقت صناديق خشبية صغيرة، سقط أحدها بيد المجاهدين، وإذا فيه أمر عسكري موقع من الجنرال "غاملان" القائد العام لجيوش الشرق موجه إلى قائد الحامية هذا نص ترجمته:

"ستصل النجدة إلى راشيا في الوقت المقرر لتحيط بالدروز نهئكم على دفاعكم المجيد" في هذا الوقت شغل المجاهدون الذين اقتحموا القلعة بالاستيلاء على الخيل والبغال والأسلحة والذخائر والعتاد وتركوا الانقضاض على أقبية القلعة والإجهاز على المدافعين عنها وقد أصبحوا على آخر رمق لولا هذا الأمر العسكري الذي يبشرهم بوصول النجدة ويشد من عزائمهم على الثبات. ومع ذلك فقد استسلم عدد من رجال الدرك اللبنانيين كانوا محاصرين في إحدى غرف القلعة فأطلق المجاهدون سراحتهم بعد الاستيلاء على أسلحتهم كما استطاع نزيه مؤيد العظم الذي كان في الحصن ووقعت بيده نسخة من الأمر العسكري أن يقف في باحة القلعة ويحذر أخوانه من عاقبة الانشغال بالسلب والنهب الذي يسبب الفشل بالحركات الحربية. ولكن أحداً لم يصغ لإنذاره، بل أخذوا يخرجون من القلعة محملين بالغنائم متجهين نحو حاصبيا تاركين الحامية في الأقبية، ولم يبق في القلعة إلا النزر اليسير من المجاهدين بينهم شكيب وهاب. وعند الغروب تقدمت الحملات الفرنسية القادمة من لبنان لنجدة حامية راشيا فاضطر الباقون في القلعة وهم قلة للخروج منها والاتجاه لمقابلة الحملة الكبيرة القادمة من الشمال فأوقفوها بضع ساعات بمساعدة الباقين من المجاهدين في المعركة وقد نفذت ذخيرتهم فاضطروا للانسحاب في جنح الليل متخليين عن عشرات الجرحى من أخوانهم بعد أن سجلوا أشد معركة في ضراوتها وإقدامها.

وتقدم الفرنسيون إلى بيت نعمان زاكي فأجهزوا على كافة الجرحى وأفراد أسرته وأحرقوا المنازل والأسواق مع أبشع أعمال التقتيل والنهب

لقد جاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق في الدفاع عن راشيا ما يلي:

كما ورد في كتاب منير الرئيس من ص ٣١٦-٣١٨.

ج- الدفاع عن راشيا من ٢٠ إلى ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٥

في الأيام الأخيرة من تشرين الأول كانت تجريدة سريعة من الخيالة والدرك تعمل في ناحية حرمون الغربي، على قمع الشقاوة التي اتسع نطاقها بسرعة حتى كاد يتناول لبنان الجنوبي، وزادت الحال توتراً وخطورة فاستقر الجيش في قلعة راشيا يوم الخامس من تشرين الثاني. والقلعة المذكورة تشرف على البلدة التي يقطنها ثلاثة آلاف نفس، نصفهم دروز ونصفهم مسيحيون، وتتسلط من الشمال على الوادي الذي ينتهي إلى البقاع، ومن الشرق على منافذ مضيق حرمون ومن الجنوب الغربي على السبل المؤدية إلى حاصبيا، وهذه القلعة حصن فرنسي قديم يشارفها قسم من البلدة وهضبة صخرية.

كانت حاميتها بقيادة الكابتين "غرغر" من فيلق الصباحيين الثاني عشر مشتملة على:

الكوكبة الرابعة من فيلق الصباحيين الثاني عشر "الكابتين غرومارفياني" والكوكبة الرابعة من الفيلق الأجنبي الأول "الكابتين لاندريو" ومفرزة الرشاشات التابعة لفيلق الصباحيين الثاني عشر "اليوتان تينه" ومئة جندي من الدرك اللبناني. وفي اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني أغلقت الأسواق في راشيا وتهيأت القلعة للدفاع، فبوشرت أعمال التحصين بنشاط ونظمت أماكن الرشاشات وأعدت مراكز راشقي القذائف وأقيمت الجدران حول نوافذ المنازل والأقبية، وطوقت القلعة، بشبكة من الأسلاك الشائكة، وهدمت بعض منازل القرية تقوياً لخط الرماية، وخزن الماء في الآبار...!!

في اليوم الحادي والعشرين من الشهر قطع الدروز جميع سبل المواصلات، فلم يبق لدى القائد لتأمين اتصاله بالخارج إلا ست حمامات زاجلة، فلما بزغ الفجر شرع العدو بالمهاجمة متسرباً إلى بيوت القرية ليصبح على مقربة من صفوفنا، واحتل الهضاب والصخور في الجنوب الشرقي فأرسل منها ناراً حامية أردت أربعة من جنودنا وجرحت خمسة عشر، وفي

منحنى النهار أصبح على تماس بالمدافعين رغم التقييف الشديد الذي قابلته به أسلحتنا الأتوماتيكية.

في ٢٢ تشرين الثاني حاول الدروز تقطيع شباك الأسلاك ولم ينفكوا عن الهجوم طوال النهار بالبنادق والقذائف، بينما كان رماثهم الحاذقون يسددون الرصاص من البيوت والصخور القائمة في الجنوب الشرقي من القرية كأنهم قصدوا إلى شل عمل الدفاع، وفي منتصف الساعة التاسعة قتل الكابتين "غرنجر" برصاصة اخترقت صدغه وهو على إحدى شرفات القلعة فخلفه في القيادة الكابتين "غروفرياي".

وعند الظهيرة شد الدروز على الجانب الجنوبي ورشقوه بالقذائف التي أحكموا تقديفها فعزلت مهمة الدفاع. على أن جنود الفيلق الأجنبي المرابطين في ذلك الجانب قد ثبتوا ثباتاً حسناً، وقابلوا المهاجمين بالقذائف أيضاً فأرغموا الدروز على التراجع عن عزمهم بعد كفاح دام ثلاث ساعات واحتفظنا بجميع مراكزنا بالرغم من تواتر إطلاق النار المتلازم، بيد أن الذخيرة قد قاربت على النفاذ فصدر أمر القائد إلى الجنود أن يتحرزوا بأنفاسهم. وكان التعب قد أدرك المدافعين ولكنهم استمروا على رباطة جأشهم وعززت معنوياتهم رسالة ألقتها إحدى الطائرات تنبئ أن الحامية ستفقد حوالي الرابع والعشرين من الشهر.

وما أزلت الساعة الخامسة صباحاً حتى حمل العدو على الجبهة الجنوبية بالقذائف تمهيداً للهجوم العام.

وفي الساعة الثامنة أغار على حين غرة، فتمكن من تسديد القذائف على البرج مرات عديدة، فتلاشى وانعدم عمل الموقع الذي استقر فيه متلوعو البواريد الرشاشة، وراشقو القذائف، فاستطاع الدروز أن يتسلقوا السلالم إلى البرج واستطلوا من الجنوب على القصر وسطوح الساحة. وفي هذه الأثناء كان العراك حامي الوطيس على ذلك المكان، أما اليونتان "كوستان" فاستمر صامداً مع جنود الفيلق الأجنبي والصباحيين في الطابق الأعلى.

وانتظمت مفرزة الصباحيين الاحتياطية بقيادة معاون الضابط الخيال ميغرو "في خط مقاومة وراء البيوت القائمة في الجانب الجنوبي بينما كان الدروز يغيرون على البرج

فيكادون يصلون إليه ، وحاولوا عبثاً أعمال النار في أرجائه. وجرح اليوتنان "مودرانو" بـ عيار ناري تناوله عن كـشب.

وفي الساعة الثامنة والنصف أرغم جنود الفيلق الأجنبي على التخلي عن البرج نهائياً وعن البيت القائم عند المدخل الصغير وفي الساعة التاسعة استقر الدروز نهائياً في البرج وشرعوا يصوبون النار على حماة الساحة، ويقتلون الجياد. وفي هذه الأثناء اكتشف الدروز سرداباً ينفذ إلى الساحة فسلكوه، فسلطت الرشاشات المذكورة ناراها على منفذه وسمرت المهاجمين عنده، على أن الدروز المرابطين في البرج تمكنوا بعد أن تحولت عنهم النار من قذف النار بغزارة على مطلقي الرشاشات وأخرجوهم جميعاً من صف القتال خلال خمس عشرة دقيقة، فتولى إطلاقها معاون القائد الخيال "بيسروف" من الفيلق الأجنبي يعاونه جندي كان يعمل على حشوها وتحرج الموقف في الساحة، فأغار اليوتنان "ديفاري" على رأس رهط من جنود الفيلق الأجنبي والصباحيين ورجال الدرك وانطلقوا برؤوس الحراب واستعادوا السرداب والبيت الذي يعلوه فتعدلت وضعية الدفاع. وحوالي الساعة العاشرة استطاع الدروز أن يدانوا الباب الكبير وكانت ذخيرة الحراس قد نفذت فرشقوا القذائف على رجال الدرك في آخر الساحة واضطروهم إلى التخلي عن موقعهم، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن استعادوها فوراً بمؤازرة الصباحيين. وهجم الدروز هجوماً آخر فأرغموا رجالنا على الانسحاب من السرداب فتراجعوا عنه متسترين بالجياد واستقروا في القسم الشمالي من السراي ثم اكتشف العدو مقر الرشاشة التي تنصب على البرج فجرحوا العاملين على إطلاقها فتركت وشأنها بضع دقائق ثم تولى أمرها الصباحيون.

كان لدى قائد الحامية حماسة زاجلة أخيرة فأطلقها وحملها إلى القيادة رسالة تتطوي على وصف الحالة فأنبأها أن الذخائر تنفذ بسرعة وطلب منها النجدة فوراً وإلا اضطر في اليوم الثاني أن يخرج على العدو مستسلماً مع من معه من رجال الحامية محاولة لإنقاذها. ودخلت الحالة عند الساعة الخامسة عشرة في طورها الأكثر خطورة فالدروز متحصنون في البيت الملاصق للباب الكبير حيث أصبحت الشرفته والمتاريس في متناول نيرانهم وأصيب عدد كبير من المقاومين بالجراح.

وظفى العدو على الساحة محاولاً الانسلاخ من خلال الجياد فصدته الرشاشة بنارها مضطرة لحصد الباقية لكنها أوقفت الهجوم فوراً.

وفي الساعة الخامسة عشرة تهاوت القنابل على الأعداء من الطائرات التي استقدمها قائد القلعة فتراخت حلقات الهجوم واستمرت في تراخيها حتى الليل.

على أن الأرصاد أبصروا لدى الساعة العشرين سهماً نارياً اخضر ينطلق على بضعة أميال في السهل وأعقبه أربع طلقات مدفعية وظهرت علامة نارية تشير إلى فيلق الصباحيين السادس.

أما الدروز فقد أدركهم ولا شك القنوط والوهن فأمسكوا عن الهجوم ليلاً. وفي ٢٤ تشرين الثاني لم يستأنف الهجوم إلا بعض متعصبي الدروز بينما كان معظمهم ينهزم شذومات صغيرة صوب زحلة وعيحا. وفي منتصف الساعة الرابعة عشر دخلت القلعة الكوكبة الأولى من فيلق الصباحيين السادس بقيادة الكابتين "ستوكله" وأنقذت الحامية، لكن النضال كان شاقاً وأسفر عن خسارة المدافعين لأربعين من المئة من قواتهم وقد قتلت جميع الخيول فكست بجثثها ساحة الميدان بأكملها. وقد ورد في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق وفي الصفحة ١٧١ منه صورة لأمر عسكري رقم ٣٩٣ مؤرخ في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٥ جاء فيه ما يلي:

وإن الجنرال القائد الأعلى للجيش الفرنسي في الشرق ينوه في الجيش بفصيلة الكابتين "غرانجر" الذي سقط في ساحة الشرف أثناء المعارك وخلفه في القيادة الكابتين "غروفارفياني" وهي تشمل على الكوكبة الرابعة لفيلق الصباحيين الثاني عشر ومفرزة الرشاشات والكوكبة الرابعة التابعة لفيلق الفرسان الأجنبي الأول والمعقود اللواء الكابتين "لاندريو" واليوتتان "تينييه" قائد فريق من الدرك اللبناني الذي قتل في ساحة الشرف ويمنحها الصليب الحربي، وقد وكل إليها أن تحمي قلعة راشيا فدافعت أربعة أيام أمام هجمات العدو المتكررة وسطرت بين تلك الجدران التي تتحدث بماضي السلف المجيد صفحة من الأساطير تسامي أروع ما في حروبنا البعيدة من المعارك وقد صمدت حتى الرصاصة الأخيرة وحتى وصول النجدات التي دحرت الثوار!!

إن ما سطرته أقلام الفرنسيين في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق على ما فيه من كذب عن نفاذ العتاد والذخيرة من الحامية ليشهد على البطولات الرائعة التي سطرها المجاهدون الذين اقتحموا حصون قلعة راشيا. ولولا الانشغال في الكسب والغنائم عن القتال لاستسلم المحاصرون في الأقبية من جنود الحامية وضباطها ولكانت قوات الثورة التي تفرقت وغادرت أرض المعركة حرصاً على الغنائم قادرة على صد الحملة ودحر الفرنسيين نهائياً. لكنها ربح الطمع وحب الكسب الذي يذهب بالنصر الذي يصبح قاب قوسين أو أدنى^(١). ولم تتجدد المعارك في جهات راشيا إلا بعد مطلع عام ١٩٢٦ بقيادة محمود كيوان وكان أشهر هذه المعارك معركة "الفالوجة" في السفح الغربي من جبل الشيخ حيث قضى المجاهدون على حامية تبلغ ثلاثمائة نفر في معركة خائفة واستولوا على ذخيرتها كاملة.

يلخص سلامة عبيد في كتابه ص ١٨٠ أبرز أحداث هذه المنطقة بالإضافة إلى ما يذكر ما يلي:

١ - استشهاد الزعيم الوطني أحمد مريود وأخيه في مطلع حزيران سنة ١٩٢٦ بعد أن عاد من العراق للمساهمة بالثورة.

٢ - استشهاد الضابط فؤاد سليم الذي اشتهر بشجاعته ومقدراته العسكرية ودقة أرائه "قلب الثورة النابض".

٣ - استشهاد الضابط خنجر أبو هرموش في معركة قتلنا وانتقام ولده جميل له بقتل عدد من الأسرى الزنوج.

٤ - بطولة المجاهد أسعد كنج أبو صالح الذي قتل تحته عدد من الخيول وهو يخوض معارك الجبل والإقليم.

٥ - كثير غيرها من البطولات التي نرجو أن يتاح لها أن تسجل بتفصيلاتها.

بعض قصائد المجاهد صياح الأرض بمعارك إقليم البلان ووادي التيم:

(١) الرئيس: ص ٣٢٠.

معركة راشيا:

يا واقعة غربي حضر	عبت على دفاتها (١)
فرنسا ما تنيت خبر	يوم ان سمك دخاتها (٢)
الحرب ما هي بالنظر	الشيخ يرخي عنائه (٣)
لعين من تلبس حبر	حنا حماة أركانها (٤)

إلى أسعد كنج (٥):

يا أسعد جينا مفازع	من فوق قب مهارنا (٦)
لكنج نطهره سريع	وبالحيس نوقد نارنا (٧)
حنا على فرنسا نبيع	بالسيف نأخذ نارنا (٨)
عدونا عقلاه يضيع	لوصار يبغي ديارنا
سلطان يا صورا منيع	أنتم حماة أحرارنا
لعين من خصره رفيع	نبيع العساكر كارنا (٩)

(١) عبت على دفاتها: أرهقت الدفان

(٢) ما تنيت خبر: ما انتظرت.

(٣) يرخي عنائه: يغير على حصانه.

(٤) الحبر: الحرير البلدي.

(٥) أسعد كنج: شيخ مجاهدي مجدل شمس

(٦) قب مهارنا: سروجها.

(٧) الحيس: المعركة.

(٨) نبيع: نرخص الأرواح.

(٩) كارنا: مهنتنا، عاداتنا.

الفصل الثالث

بعض معارك الثورة في شمال سورية ولبنان وجبل الشيخ

أ- التحضير والمعاناة

بعد معركة النبك تابعت مجموعة القاوقجي ومنير الرئيس سيرها إلى جبرود للدفاع عن البلدة وقد تعاونوا مع صفوت الجبرودي لشراء العتاد والذخيرة لهم ولسرية الدروز المرافقة لمجموعتهم^(١). وقد رفض وجهاء جبرود التعاون معهم وكذلك وجهاء الرحيبة أما في الضمير فالتقوا بنسيب البكري مع أربعين فارساً من الدروز بقيادة أبي حمزة زيد عامر قادمين للالتحاق بفوزي القاوقجي الرئيس ص ٥١١. وانتقل الجميع باتجاه الغوطة، وكانت أكثر القرى تمنع دخولهم إليها خوفاً من بطش الفرنسيين، وفي شهر نيسان ١٩٢٦ وصل الدكتور الشهبندر إلى الغوطة قادماً من الجبل يرافقه المقدم الركن مصطفى وصفي السمان و خليل الحموي وعقد اجتماعاً في ١٣ نيسان في قرية بالا حضره جميع زعماء العصابات وعقبه اجتماع ثانٍ في ١٥ نيسان في عقريا، تقرر فيه:

تأليف مجلس وطني من زعماء العصابات والضباط المجازين في الحقوق من الثوار وانتخب مصطفى وصفي قائداً عاماً في الغوطة، وسجلت القرارات في ضبط جلسات رسمية وتقرر انتخاب لجنة تنفيذية للمجلس الوطني، ولجنة أخرى لإعانة المنكوبين وتقرر إحداث قوة إجرائية ترتبط بالقائد العام سلطان باشا الأطرش لأفرادها وضباطها رواتب محددة، وقد سعى القاوقجي والعاص والرئيس لإقناع الشهبندر لإرسال قوة لتنظيم الثورة بالقلمون الذي وعد بنقل الفكرة إلى القائد العام للثورة لإرسال كتيبة من فرسان الدروز لتساعدهم في القلمون.

(١) الرئيس ص ٥١٠.

وقد وزع الشهبندر بعض الأموال على رؤساء العصابات^(١) وبعد اجتماعين آخرين غادر إلى الجبل. وبعد سفر الشهبندر قررت مجموعة سعيد العاص والرئيس أن تغامر وتسافر لإذكاء الثورة في الشمال وقد رافقهم جميل العلواني وعلاء الدين الكيلاني ومصطفى الذيب من حماه، ومحمد علي الدروبي وشاكر السباعي ومرعي التركاوي من حمص، وفائق الكيلاني ورشاد ملص من دمشق و محمد علي ملص من دمشق وأبو علي رشيد الصحنائي من دروز حوران وعبد الله المغربي ومحمد المغربي وعبد الحميد المرادوي من الجنود الفارين من الجيش الإفرنسي والملاحقين بالثورة، وكلهم مشاة عدا سعيد العاص الذي باع مسدسه في الغوطة ليشتري فرساً يركبها "كل هذا ورد في كتاب الرئيس (ص ٥٣٧-٥٣٨).

وبعد رحلة شاقة باتجاه الشمال ومعارك متعددة مع جنود السلطة الفرنسية وأنصارها، وعدم استقبالهم بكثير من القرى الموالية إلى السلطة وغزو مدينة حمص وإذكاء روح الثورة فيها وفي المناطق المجاورة لها كان هؤلاء الثوار على مقربة من مضارب الثائر الشجاع زين مرعي جعفر وأخوانه في جبال أكروم، وقد التحق بهم عدد من ثوار حماه والنبك (لاحظ كتاب تكليف القائد العام للثورة سلطان باشا الأطرش إلى سعيد العاص بقيادة حملة حمص وحماه بتاريخ ٢٥ كانون الأول سنة ١٩٢٥ وذلك في فصل ثورة حماه).

لقد استقبل الثائر الشجاع زين مرعي وكافة المجاهدين حوله هؤلاء الثوار استقبالاً منقطع النظير بالأهازيج وإطلاق الرصاص بالهواء حتى ضجت المنطقة بأسرها عند وصولهم، وبات الفرنسيون يحسبون لهم ألف حساب خاصة بعدما بدأوا يستعدون لغزو الفرنسيين وحملاتهم في المنطقة.

(١) نفس المرجع ص ٥٣٧.

ب- ثورة الضنية: (مايس سنة ١٩٢٦)

هاجم أولاد شوك وشندب مخفر الضنية ببلدتهم وفيه عريف وأربعة جنود من الدرك فقتل العريف واستولى المهاجمون على أسلحة الجميع وجيادهم، وهكذا أدركت الحكومة أن الثورة بدأت في منطقة الضنية وابتدأت بتحسين مدينة طرابلس بلبنان. فاستبشر الثوار في المنطقة لهذه الأنباء، وكتب سعيد العاص يشجع الثائرين هناك.

وهنا يذكر منير الرئيس ما يلي:

زحف الفرنسيون للقضاء على ثورة أكروم أولاً فسيروا ثلاث حملات زحفت إلى لبنان وسوريا، فاتفقنا مع زين جعفر أن يصعد حملة لبنان في منطقة الهرمل مع أبناء عمه الجعافرة ونحن الحمويين والحمصيين نصعد حملة الشمال الآتية من القصير. فتقابلنا مع الحملة القادمة من ناحية القصير فرديناها على أعقابها بعد أن تكبدت أكثر من ثلاثين قتيلاً بعد معركة دامت أكثر من خمس ساعات وبعد أن أخلينا آخر جندي فرنسي من الحملة الشمالية عن خربة سهلات المي، انتقلنا لمساعدة أخواننا في وادي فيسان من أقصر طريق لنجدة أخواننا الجعافرة في جبل الشמים^(١).

ج- معركة وادي فيسان

بدأت حملة الهرمل الفرنسية تزحف صاعدة الجبل مع نيران رشاشاتها ومدافعها والقنابل اليدوية تساعد جنودها في الهجوم، وقد أصيب قائدهم في بداية الزحف ونقل إلى المستشفى وبدأوا يتسلقون أعالي الجبال، وكان المسلحون الخمسة الذين أصابوا القائد ينسحبون أمامهم نحو القمة وقد وصلت النجدة الفرنسية للفريقين واشتعل وادي فيسان ناراً حامية حين وصل أكثر من مائة مسلح من الجعافرة من قرية الحميرة وهاجموا الحملة من ناحية السفح، كذلك وصل علي جعفر ومحمد المغربي والمرداوي ورفاقهم من وراء الحملة وقطعوا عليها طريق الإمداد بالتموين

(١) الرئيس ص ٥٩٥.

والذخيرة من الهرمل فأصبحت محاصرة تحت رحمة رصاص الثوار الذي كان ينصب عليها من جميع الجهات فخاف الجنود من نفاذ ذخيرتهم وتموينهم وبدأوا يتملصون من المعركة وقد لجأوا إلى مراح قريب بعدما ملأت جثث القتلى والجرحى سهل فيسان.

ويقول منير الرئيس^(١) :

وما أذنت شمس ذلك النهار للغروب "١٩٢٦/٥/١٨" حتى لم يبق في الساحة من جنود العدو إلا القتل والجريح ومن لا بد بالفرار إلى بناء المراح في الوادي واحتوى فيه. وقد ركز المجاهدون نيران أسلحتهم عند الغروب من مواقعهم القريبة إلى المراح والمنهزمون من الجنود يترامون نحوه للنجاة من الموت الذي يتخاضفهم وقد تكدست جثث القتلى أمام بابه حتى لم يبق في الساحة من العدو من يطلق النار..!! حينئذ تنادى المجاهدون للهجوم على المراح الذي لجأ إليه الكثير من الجنود والضباط واندفع سعيد الدرزي الذي كان معنا في معركة "سهلات المي" وشهر سيفه وانقض على المراح حتى بلغ بابه وإذا بسعد الله حماده "زعيم من عملاء الفرنسيين" في الباب يعلن عن اسمه ويقول إن كل من في المراح هو مستجير به وبحماه ولما صده سعيد الدرزي صاح قائلاً:

اقتلوني قبل أن تدخلوا المراح أو تمسوا أحداً ممن في داخله وطلب مفاوضة زين مرعي الذي اتفق معه بعد فترة من المفاوضة على تجريد جميع المحاصرين في المراح من السلاح وسلامة أرواحهم لأن أكثرهم من القناصة اللبنانيين وخرجوا أمامنا بعد أن ألقوا سلاحهم وكان عددهم يزيد عن مائة وخمسين ضابطاً وجندياً أكثرهم من القناصة والمتطوعة اللبنانيين وبينهم ضابط فرنسي مجروح في ظهره حمله أحد الجنود كما حمل الجنود جراحهم وانطلقوا في ظلام الليل إلى الهرمل بحماية سعد الله حماده من زعماء المنطقة. وبذلك تعتبر الحملة أبيدت كلها عدا جنود المراح ومن نقل من الجرحى وفر من المعركة قبل أن يقطع المجاهدون خط الرجعة على الحملة أو يطوقوها في سهل فيسان. وظل صاحب جريدة "الراية" في بيروت "عميل للفرنسيين"

(١) الكتاب الذهبي ص ٦٠١ حتى ٦٠٣.

لعدة سنوات يكتب صفحة كاملة مجللة بالسواد يوم ١٨ مايس من كل عام ينعى جنود وضباط الفرقة الثانية للقناصة اللبنانيين الذين ماتوا في معركة سهل فيسان في سبيل فرنسا المستعمرة سيدته وأمه الحنون.....!.

وقد غنم الشائرون المتاولة في معركة وادي فيسان أكثر من أربع مئة بندقية وخمسين جواداً وجميع ذخائر الحملة وعتادها ورمانات يدوية ورمانات للبنادق وأدوات صحية وثياباً عسكرية وشارات بالأسهم النارية. وخسر الشائرون اثني عشر شهيداً من المتاولة وخسرنا نحن رقيقنا محمد المغربي رحمه الله فهو أكرم الشهداء عند الله إذ تولى عن أهله وبلده في المغرب العربي وفر من جيش العدو إلى صفوف المجاهدين السوريين العرب وتحمل معهم كل مشاق الثورة ومتاعبها حتى مات شهيداً في سبيل الوطن العربي ليؤكد بدمه وحدثهم من المحيط إلى الخليج، وقد حق على المسؤولين بعد الاستقلال إقامة نصب له قرب مثواه في وادي فيسان يخلد تلك المعركة. من رفاقنا أيضاً عبد الحميد المرداوي من أبناء فلسطين واستمر في القتال بالثورة السورية حتى نهايتها ثم ترأس هذا البطل في ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ عصاية من شباب قريته "بيت مري في قضاء نابلس" وقاتل الإنكليز أروع قتال حتى استشهد ليضرب أروع الأمثال على بطولة عرب نابلس أبناء جبل النار.

يضيف منير الرئيس^(١): حدثني فلاح من أهل قرية القصير في الأيام التي تلت المعركة أنه كان مع بعض أبناء قريته يحصدون زرعاً قرب الجبل الذي كان فيه وقد مرت كتيبة الفرسان مهزومة من رصاصنا فترجل جنودها وانبطحوا أرضاً وصاح بنا الضابط كي نتوسد الأرض من الرصاص ففعلنا، وأشار إلينا بأنه إذا لم نتوسد الأرض فسيصيبنا رصاص الدروز الذي يصدر عن الجبل بتسديد صائب وسألني:

هل الدروز كثيرون في هذا الجبل؟؟ فقلت له إنهم كثير فننفخ ضيقاً وقال: أنتم تؤوّنهم وتطعمونهم ثم تتظاهرون بأنكم أصدقاؤنا تباً لكم...! وقد تبين لي أن المتخلفين عن المعركة والمتسكعين للهرب منها يصابون أكثر مما يصاب الذي

(١) الكتاب الذهبي ص ٦٠٦.

يقتحمونها ويكونون في الصف الأول. وأذكر يوماً رافقت فيه مع عدد من إخواني السوريين سلطان الأطرش لأول مرة من بلدته القريا إلى السويداء ومعه عدد من فرسان الدروز، وإذ بطائرة فرنسية كانت على علم فيما يبدو بأن سلطان في بلدته وسيعود إلى السويداء. لأنها كانت منخفضة تتعقب الطريق عند قرية العفينة لتكشفها تماماً، فلما سمعنا هدير محركها ورأيناها ترجل الفرسان وتفرقنا في السهل مبتعدين عن الطريق وتوسدنا الأرض اتقاء للقنابل التي أخذت تلقيها علينا والرصاص الذي ينطلق من رشاشاتها، إلا سلطان الأطرش فقد ظل على صهوة جواده يتابع سيره دون أن ينحرف عن الطريق حتى أفرغت الطائرة ذخيرتها ست عشرة قنبلة لم تصب بها أحداً منا.

فعجبت يومئذ لرياسة جأش سلطان ولكنني آمنت بعدها من التجارب في المعارك أن الموت يأتي المرء ولو كان في بروج مشيدة. وإن كتب الله له السلامة فلا تقتله شدة حتى ولو أصيب..^(١) وحكاية الناصر من آل عامر في جبل الدروز "أظنه حمد عامر" الذي أصيب بسبع عشرة طلقة في ساقه وبطنه وفخذيه وجسمه وظل يومين وليلتين من شهر آب سنة ١٩٢٥ في الشمس المحرقة وفي برد الليل ينزف دمه حتى وجده في اليوم الثاني لمذبحة المزرعة فلاح حوراني حمله إلى بيته وعالجه بمغلي الدبس والسمن وكى الجراح حتى شفي واشترك في معارك الثورة الأخرى^(٢). كل ذلك يجعل المرء يفكر ليقابل أحداث الحياة برياسة جأش فالآجال بيد الله فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون..."

النتائج:

بعد انتصار الجعافرة في الضنية ووادي فيسان تشجع توفيق هولو في منطقة بعلبك فهاجم بمن معه من ثوار منطقة مدينة بعلبك وأحرق دار الحكومة فيها، كما هاجم محطة اللبوة وأحرقها واشتعلت الثورة بمناطق متعددة في شمال سوريا ولبنان^(٣) وارتعب الفرنسيون من مهاجمة الثوار هنا وهناك فراحوا يرسلون أسراب الطائرات

(١) الرئيس ص ٦٠٧.

(٢) الرئيس ص ٦١٠.

تلقي قنابلها على مواقع المجاهدين في أكروم والضنية تقصف المواقع والقرى المجاهدة مرتين أو ثلاث مرات في اليوم وتلقي مئات القنابل حتى لم يبق واد ولم يبق جبل في المنطقة لم يُقصف أو لم تصبه النار وتنتشر فيه شظايا الحديد. وتكبد الأهالي الخسائر خاصة في قطعان الماشية والماعز التي كانت تقصفها الطائرات وتنقض عليها برشاشات كأنها سرايا من الثائرين...

وأقام بعدها الفرنسيون الحاميات في قرى (زيتا - القاع - بله رأس - بعلبك - الهرمل - وادي خالد) في كل حامية مئات الجنود المدججين بالأسلحة والمدافع والرشاشات. وأقاموا مخافر الجند على الجسور. كما زحفت حملة كبيرة إلى منطقة بعلبك تحرق وتهدم القرى التي ثارت أو دخلتها العصابات بالمدفعية والطائرات ويرتكب جنودها من الفضائع ما يندى له جبين الإنسانية^(١) ثم فتحت السلطة الفرنسية مراكز التطوع لجيشها في حمص وحلب فجمعت المرتزقة لتلاحق المجاهدين في كل مكان وأصدرت العفو تلو الآخر لتغريهم بالاستسلام وإلقاء السلاح.

وهكذا تغلبت القوة والدبلوماسية الفرنسية على سعيد العاص وأخوانه^(٢) وكافة البؤر الثورية في الشمال خاصة ثورة الجعافرة التي هددت الفرنسيين وأقلقّت مضاجعهم وبذلك استكان أهم جناح من أجنحة الثورة السورية الكبرى ولكن إلى حين.

د- بعض معارك جبل الشيخ

بعد ضرب دمشق وانسحاب غاملان من السويداء استدعي الجنرال ساراي إلى فرنسا وجاء خلفاً له "مسيو دي جوفنيل" أول مفوض سامي مدني لسوريا ولبنان. وقد كان متشدداً رفض أي مفاوضة مع الثوار قبل إلقاء سلاحهم. وقد رفضت قيادة الثورة المفاوضة لإنهاء موضوع الثورة في الجبل منفرداً وأصرّت على معالجة المشكلة

(١) الرئيس ص ٦١٠.

(٢) سلامة عبيد ص ١٨٣.

السورية بكاملها والمطالبة بالاتحاد والوحدة وتأليف حكومة مؤقتة يرضى عنها الثوار.

وقد عقد الثوار عدة مؤتمرات من تاريخ شباط سنة ١٩٢٦ (مؤتمر داما) حتى تموز سنة ١٩٢٦ (مؤتمر شقة ومفعلة) أكد المجتمعون فيها مقررات مؤتمر داما في اللجاة وهي:

١- مواصلة الحرب حتى تنال سوريا أمانها المشروعة.

٢- الإصرار على الاستقلال مع التمثيل الخارجي والوحدة الكاملة لسوريا.

٣- تشكيل حكومة وطنية سورية وانتخاب مجلس تأسيسي يسن الدستور ويعين شكل الحكومة. يقول الأستاذ سلامة عبيد في كتابه الثورة السورية: (لا شك بأن الفضل الأكبر في التأكيد على الوحدة الكاملة لسوريا كان لسلطان باشا الأطرش بين الزعماء الأقطارشة ومن يسايرهم من بعض الزعماء الثانويين الإقليميين أو بعض المشايخ المتعصبين. فقد ظل سلطان يرفض دائماً أي حل إقليمي ومفاوضة على أساس إقليمي، لكن إصرار العسكريين الفرنسيين على إعادة فتح الجبل حفاظاً على سمعة فرنسا وشرفها كدولة عظمى أدى إلى فشل كل هذه المفاوضات، فظل جوفنيل يستعد لمعركة الربيع في الجبل ليقضي على المقاومة في إقليم البلان لحماية ظهر قواته أولاً وأجرى انتخابات شكلية في البلاد على درجتين. وقاطعت حمص وحماء هذه الانتخابات فاعتقلت السلطات بعض أعضاء الحركة الوطنية وقادتها ونفت البعض الآخر.

أما في حلب فقد أبرزت الانتخابات السورية مجلساً نيابياً اضطر أمام الضغط الشعبي للمطالبة بالوحدة السورية في أول اجتماع له وكان ذلك كافياً لحل هذا المجلس بعد جلسته الأولى.

وقد قامت في جميع المدن اللبنانية والسورية حركات تكتب العرائض وتطالب بالوحدة السورية على أساس اللامركزية^(١) وفي مطلع ربيع ١٩٢٦ كان الثوار يسيطرون على الجبل والغوطة وإقليم البلان. وقد تابع المفاوض السامي اتصالاته

(١) نفس المصدر ص ١٨٣.

السرية والعلنية حتى تمكن الجنرال أندريا من السيطرة الكافية على مدينة دمشق^(١)، في هذه الأثناء كانت بلدة مجدل شمس والمنطقة المجاورة قد تحولت لقلعة حصينة طردت الفرنسيين من المنطقة واستمر ثوارها بشن الهجومات عليهم في السفح الغربي والشمالي لجبل الشيخ.

سيّر الفرنسيون على المنطقة حملتين حسب ما ورد بالكتاب الذهبي الفرنسي ص ١٨٢ "جيش الشرق وجيش الغرب" خاض معها الثوار معارك ضارية أبرزها معركة خان أرنبه (٣٠ آذار) اضطر العدو لأن يتراجع مدحوراً حتى القنيطرة. ومعركة غجر في الأول من نيسان حيث اشتبك الفريقان بالسلاح الأبيض وتلاصقوا أجساداً حسب تعبير الكتاب الذهبي، في حين كانت معارك أخرى تدور في جباتنا الخشب والهضاب المحيطة حيث يتولى قيادة الثوار عادل أرسلان وأحمد مريود^(٢) وفي نيسان طُوقت مجدل شمس وبدأت تتعرض لوايل من قنابل المدفعية والطائرات وقد دافع الثوار عنها بمعركة رهيبة استمرت حتى مغيب الشمس وفي اليوم الثاني تمكنوا من اختراق الطوق المضروب حولهم للتوجه نحو الجبل مع عيالهم لمتابعة الثورة هناك. وقد صادفوا الأمرين بطريقهم حتى أنجدهم قوات الثوار في الغوطة والجبل.

^(١) أندريا الثورة الدرزية وفتنة دمشق.

^(٢) سلامة عبيد ص ١٨٥.